بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني عشر

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين؛ نبيِّنا محمد ﷺ وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين. أما بعد...

الحديث الثاني والثلاثون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة، وليس فيما دون خمسة أواق من الورق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود صدقة» متفق عليه.

هذا الحديث، حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أورده المصنف لأنه من الأحاديث الجامعة في باب الزكاة، زكاة المال التي هي نماء للمال وبركة، و﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [المعارج] والزكاة فريضة من فرائض الإسلام، وركن من أركان الدين، وهو قرينة الصلاة في كتاب الله جل وعلا، وكثيرًا ما تأتي في القرآن عقب الأمر بإقامة الصلاة، وسميت الزكاة لأنها نماء للمال.

فمعنىٰ الزكاة: لغة: النماء والزيادة، وسميت زكاة المال زكاة لأنها نماء له وبركة فيه وزكاة للمال المزكي ونفع للمحتاجين، وأيضًا قوة في الترابط والصلة في المجتمع المسلم، وفيها أيضًا زوال الشحناء والبغضاء، وفيها من الثمار العظيمة والمنافع الكثيرة ما لا حد له.

وهي ركن من أركان الإسلام الخمسة المعروفة، وقد أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث، حديث أبي سعيد لأن فيه الأنصبة، أنصبة الأموال الزكوية الغالبة؛ لأن ليس كل المال يزكىٰ، وإنما تزكىٰ الأموال الزكوية إذا بلغت النصاب، فإذا بلغت النصاب أو زادت عليه فإنها تزكىٰ، وأما إذا كانت دون ذلك فإنه لا زكاة فيها إلا أن يتطوع المسلم من قبل نفسه طلبًا لثواب الله وصدقة نافلة ليست مفروضة، أما الزكاة المفروضة في المال التي هي حق المال فإنها إنما تكون إذا بلغ النصاب، وهذا الحديث فيه بيان الأنصبة للأموال الزكوية الغالبة.

والحديث يتكون من ثلاث جمل:

الجملة الأولىٰ: تتعلق بزكاة الثمار والحبوب.

والجملة الثانية: تتعلق بزكاة الفضة وهي أحد النقدين.

والجملة الثالثة: تتعلق بزكاة بهيمة الأنعام وذكر منها الإبل، فهذا الحديث يتكون من هذه الجمل

الثلاث وكلها في بيان الأنصبة، والأنصبة هي: القدر المعين من المال الذي إذا بلغه المال وجبت فيه الزكاة، فإذا كان دون ذلك فإنه لا زكاة فيه، والزكاة فيه إنما تكون إذا بلغ هذا المبلغ أو زاد عليه فإنها تجب فيه الزكاة.

قال ﷺ في الجملة الأولىٰ من هذا الحديث: «**ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة**» وهذا فيه بيان زكاة التمر وكذلك الحبوب، أو نصاب الحبوب والثمار، والنصاب فيها خمسة أوسق. والأوسق: جمع وسق، وهو يعادل ستون صاعًا بصاع النبي ﷺ، وعليه فإن النصاب علىٰ ضوء هذا الحديث نصاب الثمار والحبوب ثلاثمائة صاع لصاع النبي ﷺ، لأنك إذا ضربت خمسة أوسق المذكورة في هذا الحديث في ستين صاع؛ لأن الوسق يعادل ستين صاعًا فالناتج ثلاثمائة صاع، فإذا بلغت الثمار أو الحبوب المدخرة من ثمره أو المدخر من الحبوب إذا بلغ هذا المبلغ ثلاثمائة صاع فأكثر فإنها تجب فيه الزكاة.

وزكاته إن كان سقي بمؤنة وتكلف صاحبه في سقيه من ماء أو حفر الآبار أو جلب الماء أو نحو ذلك فإن زكاته نصف العشر، واذا كان سقي بغير مؤنه بالأمطار أو نحو ذلك فإن زكاته العشر، فهذا فيما يتعلق بالجملة الأولىٰ من الحديث وهي زكاة الحبوب والثمار، والحبوب والثمار لا تزكَّىٰ بحول الحول وإنما عند الحصاد ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١] فإذا حصد الثمر فإذا حصد الحبوب أوجد الثمار التي تدخر وبلغت هذا المبلغ فإنه يزكيها وقت الحصاد أو وقت الجذاذ كما قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

ثم ذكر في الجملة الثانية من الحديث زكاة أو نصاب الفضة وهي الورق، في الحديث الورق: هو الفضة، قال عليه الصلاة والسلام: «**وليس فيما دون خمسة أواقٍ من الورق صدقة**» قوله: «**أواق**» جمع أوقية، والأوقية تعادل أربعين درهمًا، والنصاب بالدراهم مثل ما سبق أن أشرنا في الجملة الماضية، نضرب خمسا في أربعين يكون الناتج مائتي درهم، والمراد بالدرهم هنا: أي العملة القطعة الصغيرة من الفضة التي كانوا يتبايعون بها في زمن النبي ﷺ، قطعة صغيرة من الفضة كانوا يتعاملون بها فإذا بلغ النصاب مائتي درهم يعني مائتي من تلك القطع الصغار من الفضة فقد بلغ النصاب، فلو كان عدد الدراهم مائة وتسعة وتسعون فهو دون النصاب، فإذا بلغ مائتي أو أكثر فإنه بلغ النصاب ووجبت فيه الزكاة، والمائتي درهم كما أشرت عملة من الفضة، الدرهم: عملة أو قطعة صغيرة من الفضة كانوا يتعاملون بها في ذلك الوقت، وقد قدرها أهل العلم بستة وخمسين ريالًا عربيًا من الفضة، فالمائتي درهم تعادل ستة وخمسين ريالًا

عربيًا وهو من الفضة، وإذا أراد الإنسان أن يعرف النصاب فيما لديه من فضة أو كذلك ما يعادلها يريد أن ينظر ما يعادل الفضة من ماله فإنه يسأل الصيارفة عن قيمة الستة وخمسين ريالًا، الريال العربي يسألهم كم قيمته، لنفرض قالوا له: قيمته عشرة، يضرب ستة وخمسين في عشرة، والناتج هو نصاب الفضة، هذا معنىٰ قوله ﷺ: «**ليس فيما دون خمسة أواق من الورق** –والورق: الفضة– **صدقة**» فدون ذلك لا صدقة فيه، وما بلغ هذا المبلغ أو زاد عليه فإن فيه صدقة، فيه الزكاة المفروضة، وزكاته ربع العشر، هذا فيما يتعلق بالجملة الثانية من الحديث.

والجملة الثالثة: قال فيها ﷺ: «**ليس فيما دون خمس ذود صدقة**» والذود هي: النوق ويقال هذا فيما بين الثلاثة إلىٰ التسعة، والنوق كما في هذا الحديث إذا بلغت خمس وجبت فيها الزكاة، وإذا كانت أربع أو ثلاث فإنها لا زكاة فيها، والخمس من النوق زكاتها شاة واحدة، والعشر شاتان، والخمس عشر ثلاث شياه، ثم أيضًا العشرين أربع شياه، ثم بعد ذلك في الخمسة والعشرين أنصبة أو مقدار من الزكاة بحسب عدد النوق التي عنده علىٰ ضوء ما جاء بيان ذلك في سنة النبي ﷺ، لكن المراد هنا أن النصاب خمسة ذود أو خمسة نوق فإذا بلغت هذا المبلغ فإن الزكاة مفروضة فيه وواجبة، هذا في الإبل والغنم النصاب أربعين..... ذلك لا زكاة فيه إلا أن يتصدق صاحبه وهذه التي هي بهيمة الأنعام إنما تزكىٰ إذا كانت سائمة أما إذا كان صاحبها يربيها عنده في حظيرته ويجلب لها العشب والعلف فإنها لا زكاة فيها، وإنما الزكاة فيها إذا كانت سائمة ترعىٰ أغلب الحول في المرعىٰ، فهذه التي فيها الزكاة، هذا فيما يتعلق بما دل عليه الحديث من مقدار الأنصبة الزكوية في الثمار والحبوب والفضة وبهيمة الأنعام، وذكر منها الإبل والسنة فيها بيان التفاصيل المتعلقة بالزكاة ومصارفها أيضًا جاءت في كتاب الله جل وعلا وتفاصيل الأحكام المتعلقة بها مبسوطة في كتب الأحكام.

الحديث الثالث والثلاثون

عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن يستعفف يعفُّه الله، ومن يستغني يُغنه الله، ومن يتصبر يُصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر» متفق عليه.

ثم ذكر المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا الحديث فيه فضائل ما يتعلّق بالتعفف، والاستغناء عما في أيدي الناس، والصبر وفضله، وبيان ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من مجاهدةٍ لنفسه في تحصيل الخصال الكريمة والصِّفات الطيِّبة وهي لابد فيها من المجاهدة، كما قال الله

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت]، فالحديث ذكر فيه النبي ﷺ ما يتعلَّق بالتعفُّف والاستغناء في أوَّله، والمؤمن ينبغي أن يكون مفتقرًا إلىٰ الله لا إلىٰ غيره عارضًا فاقته وحاجته علىٰ الله مستغنيًا بالله طالبًا أموره كلها من الله ملتجأ فيها إلىٰ الله مقبلًا علىٰ الله بقلبه، ليس ملتفتًا إلىٰ ما في أيدي الناس، ونفسه ليست متطلِّعة إلىٰ ما في أيديهم، وإنما قلبه مقبل علىٰ الله؛ يرجوه ويطلب منه ويلتجئ إليه ويقبل عليه ﷻ، وهذا الغاية والمقصد الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم؛ أن يكون مخلصًا مقبلًا علىٰ الله جل وعلا راجيًا طامعًا، هكذا شأنُه، وممَّا يبلغه هذا المقصد العظيم ما ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث؛ قال: «ومن يستعفف يعفُّه الله، ومن يستغنِ يغنه الله»، قال: «من يستعفف» أي: يعف عما في أيدي الناس، يعف نفسه عما في أيدي الناس، فلا يطلُب ما في أيديهم لا بلسان حاله، ولا بلسان مقاله، مستعفًّا عما في أيديهم، وفي الوقت نفسه مُقبلًا علىٰ الله، قال: «ومن يستغنِ يُغنه الله» والاستغناء هنا يستغن بالله ويطلب الغناء من الله جل وعلا: «ومن يستغنِ يُغنِه الله» ففي الحديث هنا بجملتيه وسيلة ومقصد حتىٰ يكون المرء مستغنيًا بالله لابد أن يستعف عما في أيدي الناس؛ لابد أن يستعف عما في أيدي الناس فإذا لم يستعف عما في أيدي الناس ضعف غِناه بالله وضعف غنىٰ نفسه، وإذا كان غنيًّا بما عند الله مقبلًا علىٰ الله طالبًا منه ملتجئًا إليه قلَّ عنده التشوُّف أو التطلُّع إلىٰ ما في أيدي الناس، قال: «ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغنِ يغنه الله» وقوله: «يستعف»، «ويستغنِ» إشارة إلىٰ أهمية المجاهدة في الباب وفي غيره من مطالب الدين ومقاصده، فالمُجاهدة مطلوبة، وبالمجاهدة تبلغ الإنسان مبالغ الأخيار وأعالي الدَّرجات؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[العنكبوت:٦٩] والسِّين في الجملتين للطَّلب فيستعف. يستغنِ، أي: يطلب لنفسه العفة ويطلب لنفسه الغناء بالله جل وعلا مجاهدًا نفسه علىٰ ذلك، أمَّا النفس فضعيفة، ولا يمكن مغالبتها إلىٰ المجاهدة، يجاهد نفسه علىٰ ذلك، والمجاهدة تتطلَّب من المسلم صبرًا وأن يتحلىٰ بالصبر، وأن يصبّر نفسه حتىٰ يتحقَّق له ما يأمِّله ويصبو إليه، ولهذا قال: «ومن يتصبَّر يُصبِّره الله» وهذه الجملة الثالثة في الحديث قال: «ومن يتصبّر يصبره الله» يتصبر ويصبر نفسه ويراودها في الصبر ويحثها عليه ويلزم نفسه بها ويستعين بالله تبارك وتعالىٰ علىٰ ذلك يتصبر يصبر نفسه، والصبر يتحقق بالمجاهدة التي هي التصبر، التصبر هو: المجاهدة يصبر نفسه ولتصبير النفس يحتاج العبد إلىٰ أمور عديدة حتىٰ يتصبَّر، فينظر إلىٰ ثواب الله للصابرين وينظر المآلات الحميدة التي نالها الصابرون وينظر في حلاوة نتيجة الصبر، وإن كأن في أول أمره مرَّ مذاقه لكن نتائجه ومآلاته أحلىٰ من العسل في البداية

قد يتذوق مرارة بالصبر؛ لكن النتائج والعواقب مباركة للصَّابر فيتصبَّر، وإذا تصبر وحصلت منه المجاهدة لنفسه واستعان بالله صبَّره الله، أعانه علىٰ تحقيق هذه الخصلة العظيمة.

ثم إن النبي ﷺ في الجملة الرابعة من الحديث نبَّه وبيَّن عظيم مقام الصبر ورفيعَ مكانته وأن من أُعطي الصبر فقد أوسع له في العطاء، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**وما أعطي عبد عطاء خيرا وأوسع من الصبر**» وهذا فيه بيان عظم شأن الصبر، وأن من منَّ الله ﷻ عليه بالصبر فقد منَّ عليه بخير عظيم وفضل عميم، ذلك أنَّ الصبر يحتاج إليه المسلم في كلِّ شيء، فالطَّاعة تحتاج إلىٰ صبر، والمعصية أيضًا تحتاج إلىٰ صبر الطاعة يصبر عليها، والمعصية يصبر عنها.

وأيضًا الأقدار المؤلمة تحتاج إلىٰ صبر، ولهذا قال العلماء الصبر أنواع ثلاثة: صبرٌ علىٰ طاعة الله، وصبر عن معاصي الله، وصبرٌ علىٰ أقدار الله المؤلمة، و﴿مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف]، فإذا تصبَّر وصبره الله منَّ عليه بالصبر وجعله من الصَّابرين فاز بالخيرات العظيمة لماذا؟ لأنه إذا وجد فيه الصبر وتحلىٰ بالصبر فإنه سيحافظ علىٰ الطاعات؛ لأن نفسه تصبر عليها، وأيضًا سيترك المعاصي؛ لأن نفسه تصبر عليها، وأيضًا في الآلام أو في المصائب المؤلمة فإنَّها تمرُّ عليه يسيرة سهلة لأنه متحليًا بالصبر، ولهذا الصبر يجلب لصاحبه أنواع الخيرات، ومن أُعطي الصبر فقد أُوسع له في العطاء.

ولنتأمل كمال التوجيه في هذا الحديث المبارك وحسن النصيحة للأمة، وكيف أن المؤمن ينبغي له أن يكون حياته علىٰ هذا الوصف الذي ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث، يستعف، ويستغنِ، ويتصبّر، ويكون ملتجئًا إلىٰ الله ﷻ يطلب منه فضله ويأمل في منّه وجوده وعطائه ليس ملتفتًا إلىٰ المخلوقين، وإنما مقبلًا بقلبه علىٰ من في يده أزمة الأمور ومقاليد السَّمٰوات والأرض الذي تبارك وتعالىٰ ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن.

وهذه المنالات العظيمة والدرجات الرفيعة إنما تنال ويوصل إليها بالمجاهدة التي وجه إليها وأرشد إليها رسول الله ﷺ، وقد جاء في دعاء سيورده المصنف في هذا الكتاب وأيضًا سيورده المصنف في هذا الكتاب وهو في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إني أسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ» فذكر ما ذكر في هذا الحديث طالبًا العون من الله علىٰ ذلك، العفاف يقابل قوله: «**ومن يستعف يعفه الله**»، والغنىٰ يقابل قوله: «**ومن يستغنِ يغنه الله**» فيحتاج العبد إلىٰ الله ليكون من أهل العفاف ومن أهل الغنىٰ يدعوا الله ويسأله أن يجعله من أهل العفاف وأهل الغنىٰ، وفي الوقت نفسه يبذل الأسباب

المشروعة التي إليها الإشارة في هذا الحديث في قوله: «من يستعف» وفي قوله: «من يستغنِ» فبالأمرين يحصِّل العبد الخير ويفوز به.

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعة الله» رواه مسلم.

هذا الحديث حديث أبي هريرة عند مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ يتكون من جمل ثلاثة يتكون من جملٍ ثلاث:

الجملة الأولىٰ: في فضل الصدقة.

الجملة الثانية: في فضل العفو.

الجملة الثالثة: في فضل التواضع.

فهو من أحاديث فضائل الأعمال؛ لأنَّ فيه فضل الصدقة، وفضل العفو، وفضل التواضع، وهذه الخصال الثلاثة الصَّدقة التي هي سخاء النفس والجود، كذلك العفو، وكذلك التواضع، كلُّها أنواع للإحسان، فالمتصدق محسن بماله، والعافي عن الناس محسن إلىٰ من ظلمه وأساء إليه بعفوه، والمتواضع أيضًا محسن إلىٰ الناس بلين جانبه وحسن خلقه وكريم معاملته، فكلُّها إحسان: الصدقة، والعفو، والتواضع، وهي من خصال المحسنين وصفاتهم.

كما أشرت يتكون الحديث من جمل ثلاث كما اشتدت يتكون الحديث من جمل ثلاث:

أمَّا الجملة الأولىٰ في الحديث فهي في فضل الصدقة، قال عليه الصلاة والسلام: «ما نقصت صدقة من مال» الذي تذهب إليه الأوهام وربما يتبادر إلىٰ كثير من الأذهان أن المال الذي يخرج صدقة ينقص به مال الإنسان؛ لكن الحقيقة خلاف ذلك، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما نقصت صدقة من مال» فالصدقة لا تنقص المال بل تزيده، تزيد المال من وجوه عديدة وإن كان يأخذ من المال جزءًا ويعطيه المحتاج أو يصرفه في وجوه الخير إلا أنه في الحقيقة وفي أثره علىٰ المال وعلىٰ صاحبه زيادة، زيادة وليس نقصًا، ولهذا قال: «ما نقصت صدقة من مال» ليس يُتوهَّم أن المال إذا تُصدِّق منه نقص؛ بل إذا تصدق منه زاد وهذه الزيادة؛ كما أنها دل عليها الشرع فإن الواقع يدل عليها؛ لأن أهل الصدقة والإحسان والبذل ومن يعرفون بالجود والعطاء في مالهم بركة وطيب ولذّة لا يجدها من سواهم وتناميه، وحصول البركة فيه والنماء والزيادة وزوال الصَّوارف عنه والآفات، كذلك ما يحصل لغيرهم ممن ليس كذلك من إمحاق

بركة المال فهو في عافية من ذلك كله، وهذه كلها من وجوه الزيادة التي تكون في أموالهم بسبب الصدقة التي تفضَّلوا بها من أموالهم طلبًا لثواب الله وعونًا لإخوانهم، قال: «ما نقَصت صدقةٌ من مال» هذه الجملة الأولىٰ.

الجملة الثانية تتعلَّق بالعفو، قال: «وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا» وهنا أيضًا يتوهَّم من يتوهَّم أن العفو نوع مذلَّة من العافي؛ بل يعدُّ بعض الناس أن العفو خلاف الشهامة، وخلاف العِزّة، وخلاف ما ينبغي أن يكون عليه الرجال الأشداء، هكذا يتصور بعض الناس ويتصورون أن العفو نوع ذل ويتنافىٰ مع الرجولة هكذا يتصورون، ولهذا يعيبون العافي، يعيبونه ويلومونه ويشنعون عليه لهذا التصور، ولهذا التوهم الخاطئ، والنبي ﷺ بيَّن حقيقة العفو وأنه خلاف ما يتوهمه بعض الناس من أنه نوع ذل، هو خلاف ذلك، قال: «وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا» خلاف ما يظنون خلاف ما يظنه الناس فهو ليس نوع ذل؛ بل هو عزٌّ عند الله عَزَّوَجَلَّ ورفعة للعافي؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يحب العافين عن الناس ويحب المحسنين وهذا من الإحسان، وأيضًا هو عزٌّ عند الناس؛ لأن من تمكَّن ممن أساء إليه أو اعتدىٰ عليه من تمكَّن منه، ثم عفا عنه لا لشيء إلا طلبًا لثواب الله، وطلبًا لرضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا عفا عنه ماذا يكون شأنه عنده الناس؟ ماذا يكون شأن العافي عند الناس؟ تعلو منزلته ويزيد عزه وقدره، وتُعرف له مكانته وفضله، فما يتوهَّمه من يتوهم أن العفو نوع ذلٍّ غير صحيح؛ بل هو عزٌّ لصاحبه في الدنيا والآخرة، عزٌّ لصاحبه في الدنيا والآخرة، ولهذا لا يزداد من يعفو بعفوه إلا عزًّا ورفعة في دنياه وأخراه، ولا يكون له بعفوه مذلَّة ولا يُصيبه به مذلة لا في الدنيا ولا في الآخرة، قال: «وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا» فالعفو فضله عظيم ومكانته عالية وهو عز لصاحبه في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر الجملة الثالثة من الحديث وهي تتعلق بالتواضع، التواضع قال: «ما تواضع عبد لله إلا رفعه» والتواضع: ضد الكبر والناس إما متواضع أو متكبر وقد بين النبي ﷺ الكبر ما هو؟ قال: «غمط الحق»؛ «بطر الحق، وغمط الناس» فهذا هو الكبر له جانبان: جانب فيما يتعلق بحق الله جل وعلا في هذا الدين، وجانب فيما يتعلق بحق الناس؛ من حسن المعاملة معهم وعدم الاعتداء أو الإساة إليهم، فالمتكبر متكبر عن الحق لا يقبله، ومتكبر عن الخلق يتعالىٰ عليهم ويترفع وبتعاليه وترفعه عليهم تأتيهم منه أنواع الإساءات والاعتداءات التي كلها تنشأ من تكبره، والمتكبر عندما يتكبر علىٰ الناس يريد بتكبره طلب ماذا؟ العلو والرفعة فيُعامله الله جل وعلا بنقيض قصده، فالمتكبر الذي طلب بتكبُّره علىٰ الناس الرفعة

يعامَل بنقيض قصده؛ فيكون المتكبر أهون الناس وأوضعهم وأحقرهم عندما يتَّصف بهذه الخصلة الذميمة، بينما المتواضع الذي يلين جانبه ولا يتكبر علىٰ الحق، ولا يتعالىٰ علىٰ الخلق؛ بل يتواضع ويلين ويحسن ويعطف ويرحم، فهذا يرفعه الله جل وعلا يرفعه الله «من تواضَع لله رفعه» ومفهوم المخالفة هنا أن من تكبر وضعه الله، ومن تواضع رفعه الله، ومن تكبَّر وضعه الله، فالتكبر الذي يُطلب به الرفعة عقيدته الضعف أن يضعه الله جل وعلا عاقبته الهوان، والتواضع الذي هو لين وإستكانة وعدم تكبرٍ وتعالٍ عاقبته الرفعة.

قال: «ومن تواضع لله رفعة» وقوله: «لله» فيه الإخلاص وأن التواضع إنما يكون رفعة إذا كان لله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه؛ كما مرَّ معنا في أول الحديث «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ» فالتواضع عبادة وطاعة وعمل صالح يحبه الله، لكن الله لا يقبله ممن قام به إلا إذا قصد به وجه لله، ولهذا قال: «من تواضع لله» أي: يطلب بتواضُعه وجه الله.

أما من تواضع للأغنياء لمالِهم أو للرؤساء لينال حظوة عندهم، أو تواضع رياء وسمعة ليمدح ويثنىٰ عليه، فإن كل هذا مما لا يقبله الله، الله جل وعلا لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا، وأيضًا كل هذا لا تكون به الرفعة، فالرفعة إنما تكون بالتواضُع لله وطلب ثواب الله جل وعلا، هذا معنىٰ قوله ﷺ: «ومن تواضَع لله رفعة» وعلىٰ كلٍّ فالحديث فيه جمل ثلاث في فضائل الأعمال، فضل الصدقة، وفضل العفو، وفضل التواضع.

الحديث الخامس والثلاثون:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، قال الله تعالىٰ: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، والصوم جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرئ صائم» متفق عليه.

ثم أورد المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث وهو في فضائل الأعمال عمومًا وفضل الصيام علىٰ وجه الخصوص، أما فضل الأعمال عمومًا ففي قوله ﷺ: «كلُّ عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف» وهذا فيه بيان عظيم فضل الله جل وعلا وعظيم ثوابه للعاملين والمطيعين والمقبلين علىٰ

طاعته جل وعلا فالحسنة، فالحسنات كلها مضاعفة وأقل التضعيف عشر، كل حسنة مضاعفة وأقل تضعيف عشر حسنات، العمل بعشر حسنات «**كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها**» هذا أقل شيء ثم تبدأ المضاعفة إلىٰ سبعمائة ضعف، فالحسنة الواحدة يضاعف ثواب صاحبها إلىٰ عشر، وتزيد علىٰ ذلك إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، والله عَزَّوَجَلَّ واسع الفضل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والفضل فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

والتضعيف يرجع لأسباب من أهمها قوة الإيمان والإقبال علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وكمال الإخلاص وصفاء القلب، وذلك قد يشترك اثنان في عمل واحد صورته واحدة والفرق بينهما كما الفرق بين السماء والأرض، لما قام في قلب أحدهما من كمال الإيمان وتمامه.

وأيضًا نفع العمل الصالح وتعدُّد آثاره وثماره وقد مرَّ معنا فالحديث من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا.

فهناك أعمال تمتد وتبقىٰ أجورها وتتنوع آثارها وثمارها وتتضاعف ويكون صاحبها في قبره متوالية عليه الأجور متتابعة عليه الحسنات، فهي ترجع إلىٰ نوع العمل، وأيضًا ترجع إلىٰ ما قام بقلب العامل من الإيمان والإخلاص والصدق والنُّصح وقوة الإيمان.

لنأخذ مثال: إماطة الأذىٰ عن الطَّريق، جاء في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «مر رجل بغصن شجرة ذي شوك، فقال: والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم؛ فأماطه، فشكر الله عمله فأدخله الجنة».

فهذا الرجل إغاثة إلىٰ العمل الصالح الذي قام به وهو إماطة الأذىٰ عن الطريق ماذا قام في قلبه؟ قلبه قام فيه من الإحسان ومحبة الخير للناس وأنه قد أساءه ما يسوؤهم ويؤلمه ما يؤلمهم فقلبه مليء بهذه المعاني العظيمة.

قد يقوم بهذا العمل آخر يميط الأذىٰ عن الطريق ولم يقم في قلبه ما قام في قلب الأول فيميط عن الطريق يقول: أنا بالليل مثلًا سأرجع أخشىٰ أن أقع فيه، هذا الذي قام في نفسه، هل هذا والأول سواء؟ مع أن الإماطة واحدة من هذا وهذا، صورة العمل واحدة؛ لكن اختلف المقام.

وثالث: قد يميط الأذىٰ عن الطريق؛ لأنه رمق من يبصره ويراه، فطلب بإماطة الأذىٰ عن الطريق مدحة الناس وثناءهم؛ فأماطه، لا لشيء إلا لينال به حظوة عند الناس ويمدح ويثنىٰ عليه.

فهل هؤلاء سواء؟ مع أن صورة العمل فيهم واحدة، ولهذا العمل لثوابه وعظيم مكانته عند الله اعتبارات أهمها ما يقوم في قلب العامل من الإيمان والصِّدق والإخلاص والنصح وغير ذلك من المعاني.

ولهذا تفاوت التضعيف الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، فتكون الحسنة الواحدة في حق إنسان مضعفة عشرًا ونفسها في حق آخر مضاعفة سبعمائة أو أضعاف؛ لأي شيء؟ لتفاوت ما كان في القلوب من الصِّدق والإخلاص والسَّخاء والنُّصح، وغير ذلك من المعاني.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: «**إلا الصّوم فإنه لي وأنا أجزي به**» وهذا فيه بيان عظيم ما ادخره الله تبارك وتعالىٰ للصائمين، قال: «**إلا الصوم**» يعني مع هذا التضعيف الذي ذُكر في الأعمال إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة إلا الصَّوم فشأنه آخر.

وإذا كان للصوم شأنٌ آخر عند الجواد الكريم، فما هو هذا الأجر؟ وما هو هذا الثواب؟ وهذا فيه تفخيم وتعظيم الثواب الذي أعده الله تبارك وتعالىٰ للصائمين، قال: «**إلا الصَّوم فإنه لي وأنا أجزي به**» وكل عمل الذي يجزي به عليه هو الله؛ لكن هذا التخصيص للصيام يدلُّ علىٰ عظيم ثواب الصائمين، وأنَّ الصائم يوفىٰ أجره بغير حساب، قال: «**إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**» ثم ذكر شأن الصائم وما نال به عند الله عَزَّوَجَلَّ من هذه الأجور العظيمة، قال: «**يدع طعامه وشرابه لأجلي**» وهنا في الصيام خاصية من بين سائر الطاعات أنه سرٌّ بين العبد وبين الله، بينما بقية الطاعات الذي يتصدَّق يدري به علىٰ الأقل من تصدق عليه، والمصلِّي يُرىٰ يصلي، والحاج يُرىٰ ذهابه للحج وهكذا الأعمال الأخرىٰ إلا الصيام، الصيام بين العبد وبين الله، ولهذا قد يصوم الإنسان ولا يُدرىٰ عنه، وقد يكون مفطرًا ويُظن أنه صائم أو يتظاهر بأنه صائم فهو أمر بين الإنسان وبين الله.

والصائم يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجل الله، ولا حظ هنا ما يفعله الصائم، الصائم يدع أمورا ألفها واعتادتها نفسه، ومضىٰ عليها الطعام والشراب، له أشياء ألفها في الساعة الفلانية أو الوقت الفلاني يطعم كذا أو يشرب كذا، وكلّها يتركها لا لشيء إلا لله، مع أنه قد يتيسر له أن يأكل ويطعم ويشرب ولا يشعر به أحد؛ لكنه لا يفعل ذلك إلا لأجل الله طلبًا لثوابه ومرضاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال: «**يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي**» ثم ماذا؟ نعم، قال: «**للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه**» وهذا أيضًا في بيان مكانة الصيام وما أعده الله عَزَّوَجَلَّ للصائم من خير وفضل وأن الصائم نتيجة صيامه الفرح في الدنيا والآخرة، أمَّا الدنيا فإنه يفرح عند فطره، وفرحة عند فطره يرجع إلىٰ فرحه بإتمام الله عَزَّوَجَلَّ عليه نعمة الصيام، وما

منَّ عليه تبارك وتعالىٰ بالطعام والشراب والغذاء فهو يفرح هذا فرح معجَّل، وهناك فرح مؤجل عندما يلقىٰ الله ﷻ، ما الذي يفرح به الصائم عندما يلقىٰ الله هو ذلك الثواب الذي فخَّم الله شأنه وأعلىٰ قدره بقوله: «**الصيام لي وأنا أجزي به**» فيفرح بثواب الله العظيم وعطائه الجزيل الذي أعدَّه للصائمين بغير حساب؛ «**للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربِّه**».

ثم قال: «**ولخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**» وهذا أيضًا فيه مكانة الصائم عند الله جل وعلا، وخُلوف فم الصائم؛ أي: الريح التي تكون في آخر النهار وفي آخر وقت الصيام نتيجة خلوّ المعدة وخروج بعض الأبخرة مع الفم فتخرج ريحًا ليست مستحبّة أو ريحًا كريهة يستكرها الإنسان، فهذه الريح نتجت عن هذه الطاعة فعظَّم الله ﷻ شأن الصَّائم بقوله: «**ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**» مع أنَّ هذه الريح عند الناس ريحٌ مستكرهة؛ لكنَّها عند الله ﷻ أطيب من ريح المسك.

ثم قال أيضًا أمرًا آخر يتعلق بالصيام ومكانته، قال: «**الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو شاتمه فليقل إني امرؤ صائم**» وهذا فيه مكانة الصيام من وجه آخر.

قال: «**الصيام جُنّة**» ومعنىٰ جنة أي واقي لصاحبه، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة]، فالصِّيام جُنّة يقي صاحبه من وجوه منها:

منها أن من يدع الشهوة المألوفة المباحة الطعام والشراب وتعتاد نفسه ذلك بالصيام فإن هذا يعطي الإنسان رياضة للبعد عن الحرام إذا كان يصوم عن المباحات وقت الصيام لأجل الله ﷻ، فإنه يهون عليه أن يصوم عن الحرام ويمتنع عنه فالصيام يعوده علىٰ الصبر والامتناع عن الحرام؛ لأن الصيام منعٌ للنفس وحبسٌ لها فتتدرَّب ويتحقق به التقوىٰ، ويتحقق به أن يكون جنَّة لصاحبه من الوقوع في المعاصي، ويكون فيه انكسار النفس وحُسن الإقبال علىٰ الله جل وعلا واللين، مما يكون معه بعد للإنسان عن الحرام وإقبالٌ علىٰ الخير، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج فإن لم يستطع فعليه بالصيام فإنه له وجاء» وقوله: «وجاء» هو بمعنىٰ «**جُنّة**» فالصائم إذا منع نفسه عن مألوفاته من طعام وشراب طلبًا ثواب الله مع أنه اعتادها فإن نفسه ترتاض علىٰ البعد عن الحرام، إذا كان يصوم عن هذه المباحات طلبًا لثواب الله فإنه سيصوم بإذن الله عن المحرمات طلبًا لثواب الله ولهذا قال: «فعليه بالصيام فإنه له وجاء» أي: واقي قال: «**الصيام جنة**».

ثم ذكر عليه الصلاة والسلام ما ينبغي أن يكون عليه الصائم من تحقيق لمقصد الصيام؛ وهو تحقيق تقوىٰ الله جل وعلا والبعد عن الآثام، قال: «**فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب**» والرفث هو فعل القبيح وقوله، والصخب: اللجج ورفع الصوت وا لنزاع، وهذا كله يبتعد عنه الصائم ويتحاشىٰ منه من الوقوع فيه، قد قال عليه الصلاة والسلام: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» ولهذا لابد أن يكون الصَّوم من أمرين:

صوم من تلك المباحات الطعام والشراب والشهوة من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس.

وصوم عن المحرمات والنواهي بأن يمنع الإنسان نفسه عنها.

فمن لم يمنع نفسه عن المحرمات وعن النواهي فكما قال في الحديث: «**فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**»؛ لأن غاية الصيام ومقصده وهو تقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لم تظهر عليه، ولهذا يحتاج الصائم أن يحقق في نفسه أثر الصيام وثمرته، فلا يرفث ولا يصخب، وقد يبتلىٰ الصائم بمن... إلىٰ من يجره إلىٰ شيء من هذه الأمور ولهذا قال: «**فإن سابه أحد أو شاتمه فليقل: إني صائم**» يقولها بلسان حاله أو بلسان مقامه، بلسان حاله يذكر نفسه بالصيام ومقامه، أو بلسان مقاله لمن سابَّه أو شاتمه حتىٰ يعرف الحال التي هو عليها وأن لديه من القدرة أن يقابله بالمثل؛ لكنه متحل بالصيام، مبتعدًا عن الحرام، محافظًا علىٰ الأمور التي ينال بها رضا الرب تبارك وتعالىٰ.